والاسلحة والزينة وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في المجلس الشرقي من مجالس السطح وقعد
الاخوة وبنوهم والوزراء ونظراؤهم صفا في المجلس فيهم القاضي منذر بن سعيد والحكام والفقهاء فاتى
محمد بن القاسم بن طملس بالملك اردون واصحابه وعليه لباسه ثوب ديباج رومي ويلبوا الى جنسه وفي
لونه وعلى راسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر وقد حفته جماعة من وجوه نصارى الذمة بالاندلس يونسونه
ويبصرونه فيهم وليد بن خيزران قاضي النصارى بقرطبة وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما فدخل بين
صفي الترتيب يقلب الطرف في نظم الصفوف ويجيل الفكر في كثرتها وتظاهر اسلحتها وراق حليتها فراعهم
ما ابصروه وصلبوا على وجوههم وتاملوا ناكسي رؤوسهم غاضين من اجفانهم قد سكرت ابصارهم حتى وصلوا
الى باب الاقباء اول باب قصر الزهراء فترجل جميع من كان نخرج الى لقائه وتقدم الملك اردون وخاصة قوامسه
على دوابهم حتى انتهوا الى باب السدة فامر القوامس بالترجل هنالك والمشي على الاقدام فترجلوا ودخل الملك اردون
وحده راكبا مع محمد بن طملس فانزل في بوطل البهو الاوسط من الابهاء القبلية التي بدار الجند على كرسي مرتفع
مكسو الاوصال بالفضة وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومنافره شانجه بن ردمير الوافد على الناصر
لدين الله رحمه الله فقعد اردون على الكرسي وقعد اصحابه بين يديه وخرج الاذن لاردون الملك من المستنصر
بالله بالدخول عليه فتقدم يمشي واصحابه يتبعونه الى ان وصل الى السطح فلما قابل المجلس الشرقي الذي فيه المستنصر
بالله وقف وكشف راسه وخلع برنسه وبقي حاسرا اعظاما لما بان له من الدنو الى السرير واستنهض فمضى
بين الصفين المرتبين في ساحة السطح الى ان قطع السطح وانتهى الى باب البهو فلما قابل السرير خر ساجدا سويعة
ثم استوى قائما ثم نهض خطوات وعاد الى السجود ووالى ذلك مرارا الى ان قدم بين يدي الخليفة واهوى الى يده
فناوله اياها وكر راجعا متقهقرا على عقبه الى وساد ديباج مثقل بالذهب جعل له هنالك ووضع على قدر
عشرة اذرع من السرير فجلس عليه والبهر قد علاه وانهض خلفه من استدني من قوامسه واتباعه فدنوا
ممتثلين في تكرير الخنوع وناولهم الخليفة يده فقبلوها وانصرفوا متقهقرين فوقفوا على راس ملكهم ووصل
بوصولهم وليد بن خيزران قاضي النصارى بقرطبة فكان الترجمان عن الملك اردون ذلك اليوم واطرق الخليفة
الحكم عن تكليم الملك اردون اثر قعوده امامه وقتا كيما يفرخ روعه فلما راى ان قد خفض عليه افتتح تكليمه فقال
ليسرك اقبالك ويغبطك تاميلك فلدينا لك من حسن راينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته فلما ترجم له كلامه
اياه تطلق وجه اردون وانحط عن رتبته فقبل البساط وقال انا عبد امير المؤمنين مولاي المتورك على فضله
القاصد الى مجده المحكم في نفسه ورجاله فحيث وضعني من فضله وعوضني من خدمته رجوت ان اتقدم فيه بنية
صادقة ونصيحة خالصة فقال له الخليفة انت عندنا بمحل من يستحق حسن راينا وسينالك من تقدمنا
لك وتفضيلنا اياك على اهل ملتك ما يغبطك وتتعرف به فضل جنوحك الينا واستظلالك بظل
سلطاننا فعاد اردون الى السجود عند فهمه مقال الخليفة وابتهل داعيا وقال ان شانجة ابن عمي تقدم الى
الخليفة الماضي مستجيرا به مني فكان من اعزازه اياه ما يكون من مثله من اعاظم الملوك واكارم الخلفاء لمن قصدهم
واملهم وكان قصده قصد مضطر قد شنأته رعيته وانكرت دعوته سيرته واختارت غيره لمكانه من غير سعي
علم الله ذلك ولا ادعاء اليه فخلعته واخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا فتطول عليه رحمه الله بان نصره الى
ملكه وقوى سلطانه واعز نصره ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التي اسديت اليه وقصر في اداء المفروض عليه وحقه
وحق امير المؤمنين مولاي من بعده وانا قد قصدت باب امير المؤمنين لغير ضرورة من قرارة سلطاني وموضع احكامي محكما
له في نفسي ورجالي ومعاقلي ومن تحويه من رعيتي فشتان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح الهمة فقال الخليفة قد سمعنا
قولك وفهمنا مغزاك وسوف يظهر من اقرارنا اياك على الخصوصية شانه ويترادف من احساننا اليك ما يستعظم
سلفك من ابينا رضي الله الى نيله وان كان له فضل التقدم بالجنوح الينا والقصد الى سلطاننا فليس ذلك مما
يؤخرك عنه ولا ينقصك مما اثلناه وسننصرفك مغبوطا الى بلدك ونشد اواخي ملكك ونملكك جميع من انحاش اليك
من امتك ونعقد لك بذلك كتابا يكون بيدك تقر به حد ما بينك وبين ابن عمك وتقبضه عن كل ما يعترض من
البلاد الى يدك وسيترادف عليك من افضالنا فوق ما احتسبته والله على ما نقول وكيل فكرر اردون الخضوع
واسهب في الشكر وقام للانصراف متقهقرا لا يولي الخليفة ظهره وقد تكنفه الفتيان من جملة الفتيان فاخرجوه
الى المجلس الغربي في السطح وقد علاه البهر واذهله الروع من هول ما باشره وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء
العزة فلما ان دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد امير المؤمنين خاليا منه انحط ساجدا اعظاما له ثم تقدم الفتيان به
الى البهو الذي يحوي هذا المجلس فاجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب واقبل نحوه الحاجب جعفر فلما بصر
به قام اليه وخنع له واوما الى تقبيل يده فقبضها الحاجب عنه وانحنى اليه فعانقه وجلس معه فغبطه ووعده
من انجاز عدات الخليفة له بما ضاعف سروره ثم امر الحاجب جعفر فصبت عليه الخلع التي امر له بها الخليفة وكانت
دراعة منسوجة بالذهب وبرنسا مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجوهر والياقوت ملات
عين العلج بجلالة فخر ساجدا واعلن بالدعاء ثم دعا الحاجب باصحابه رجلا رجلا فخلع عليهم على قدر استحقاقهم فكمل
جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم وخرج جميعهم خاشعين شاكرين ثم انطلق الملك اردون واصحابه وقدم لركابه
في اول البهو الاوسط فرس من عتاق خيل الركاب عليه سرج حلي ولجام حلي مفرغ وانصرف مع ابن طملس الى قصر الرصافة
مكان تضييفه وقد اعد له فيه كل ما يصلح لمثله من الالة والفرش والماعون واستقر واصحابه بها لا كفاء لها من سعة
التضييف وارغاد المعاش واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعز الاسلام فيه ما افاضوا في التبجح به والتحدث
عنه اياما وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة في هذا اليوم مقامات حسان وانشادات لاشعار محكمة متانيها يطول

القول

القول في احيائها فمن ذلك قول عبد الملك بن سعيد المرادي من قصيدة حيث يقول

ملك الخليفة آية الاقبال … وسعوده موصولة بنوال
فالمسلمون بعزة وبرفعة … والمشركون بذلة وسفال
القت بايديها الاعاجم نحوه … متوقعين لصولة الرئبال
هذا اميرهم اتاه آخذا … منه اواصر ذمة وحبال
متواضعا لجلاله متخشعا … متبرعا لما يرى بقتال
سينال بالتاميل للملك الرضى … عز ابيه عداه بالاذلال
لا يوم اعظم للولاة مسرة … واشد غيظا على الاقيال
من يوم اردون الذي اقباله … امل المدى ونهاية الاقبال
ملك الاعاجم كلها ابن ملوكها … وال الرعاة وللاعاجم وال
ان كان جاء ضرورة فلقد اتى … عن عز مملكة وطوع رجال
فالحمد لله المنيل امامنا … حفظ الملوك بقدرة المتعال
هو يوم حشر الناس الا انهم … لم يسالوا فيه عن الاعمال
اضحى الفضاء مفعما بجيوشه … والافق اقتم لغبر الرجال
لا يهتدي الساري لليل قتامه … الا بضوء صوارم وعوال
وكان اجسام الكماة تريكت … مذ عريت منه جسوم صلال
وكانما العقبان عقبان الفلا … منقضة تنحط للضلال
وكان منتصب القنا مهتزة … اشطان نازحة بعيد قحال
وكانما قبل التجافيف اكتست … نار الوجيها بلا اشعال

قال بعض المورخين في حق الحكم المستنصر رحمه الله تليد صاحب خزانة العلمية حدث عنه الحافظ ابو محمد بن حزم
ان عدة الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربع واربعون فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر الدواوين
فقط انتهى وقد قدمناه عن ابن خلدون ونقله ابن الابار في التكملة وقال بعض المورخين في حق الحكم انه كان حسن
السيرة مكرما للقادمين عليه جمع من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة حتى قيل انها كانت اربعماية الف
مجلد وانهم لما نقلوها اقاموا ستة اشهر في نقلها وكان عالما نبيها صافي السريرة وسمع من قاسم بن اصبغ واحمد بن
دحيم ومحمد بن عبد السلام الخشني وزكريا بن خطاب واكثر عنه واجاز له ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى هولاء
وكان يستجلب المصنفات من الاقاليم والنواحي باذلا فيها ما امكن من الاموال حتى ضاقت عنها خزاينه وكان ذا
غرام بها قد آثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمت استفادته وكان في المعرفة بالرجال
والاخبار والانساب احوذيا نسيج وحده وكان ثقة فيما ينقله بهذا وصفه ابن الابار وباضعافه وقال عجبا
لابن الفرضي وابن بشكوال كيف لم يذكراه وقلما يوجد كتاب من خزاينه الا وله فيه قراءة او نظر في اي فن كان ويكتب
فيه نسب المولف ومولده ووفاته وياتي من بعد ذلك بغرايب لا تكاد توجد الا عنده لعنايته بهذا الشان ومما
ينسب اليه من النظم قوله

الى الله اشكو من شمائل مترف … على ظلوم لا يدين بما دنت
نات عنه داري فاستزاد صدوده … واني على وجدي القديم كما كنت
ولو كنت ادري ان شوقي بالغ … من الوجد ما بلغته لم اكن بنت

وقوله

عجبت وقد ودعتها كيف لم امت … وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي
فيا مقلتي العبرى عليها اسكبي دما … ويا كبدي الحرى عليها تقطعي

وتوفي رحمه الله بقصر قرطبة ثاني صفر سنة ست وستين وثلاثمائة
لست عشرة سنة من خلافته وكان اصابه الفالج فلزم الفراش الى ان هلك رحمه الله وكان قد شدد في ابطال الخمر في مملكته تشديدا عظيما
وولي بعده ابنه هشام صغيرا سنه تسع سنين ولا باس بذكر قول ابن خلدون وقد ناهز الحلم وكان الحكم قد
استوزر له محمد بن ابي عامر ونقله من خطة القضاء الى وزارته وفوض اليه في اموره قال ابن خلدون وترقت
حال ابن ابي عامر عند الحكم فلما توفي الحكم وبويع هشام ولقب بالمويد بعد ان قتل ليلتئذ المغيرة اخو الحكم المرشح لامره
تناول الفتك به محمد بن ابي عامر هذا بممالاة من جعفر بن عثمان المصحفي حاجب ابيه وغالب مولى الحكم صاحب مدينة
سالم ومن خصيان القصر يومئذ ورؤسائهم فايق وجوذر فقتل ابن ابي عامر المغيرة بممالاة من ذكر وتمت البيعة
لهشام ثم سمى لابن ابي عامر امل في التغلب على هشام لمكانه في السن وثاب له راي في الاستبداد فمكر باهل الدولة
وضرب بين رجالها وقتل بعضا ببعض وكان من رجال اليمنية من معافر دخل جده عبد الملك مع طارق وكان عظيما في
قومه وكان له في الفتح اثر وعظم ابن ابي عامر هذا وغلب على المويد ومنع الوزراء من الوصول اليه الا في النادر من
الايام يسلمون وينصرفون وارضى الجند في العطاء واعلى مراتب العلماء وقمع اهل البدع وكان ذا عقل ورأي وشجاعة
وبصر بالحروب ودين متين ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم وحطهم عن مراتبهم وقتل بعضا
ببعض كل ذلك عن هشام وخطه وتوقيعه حتى استاصلهم وفرق جموعهم واول ما بدا بالصقالبة الخصيان الخدام
بالقصر فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم فنكبهم واخرجهم من القصر وكانوا ثمانماية او يزيدون ثم اصهر الى غالب مولى
الحكم وبالغ في خدمته والتنصح له واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا اثره من الدولة ثم استعان على غالب
بجعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة وقائد الشيعة ممدوح ابن هانئ بالقائية المشهورة وغيرها وهو النازع
الى الحكم اول الدولة وبمن كان معه من زناتة والبربر ثم قتل جعفر بممالاة ابن عبد الودود وابن جهور وابن
ذي النون وامثالهم من اولياء الدولة من العرب وغيرهم ثم لما خلا الجو من اولياء الخلافة والمرشحين للرياسة
رجع الى الجند فاستدعى اهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندا واصطنع اولياء وعرف عرفاء
من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة
وملا الدنيا وهو في جوف بيته من تعظيم الخلافة والخضوع لها ورد الامور اليها وترديد الغزو والجهاد
وقدم رجال البرابرة وزناتة واخر رجال العرب واسقطهم عن مراتبهم فتم له ما اراد من الاستقلال بالملك
والاستبداد بالامر وبنى لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة ونقل اليها خزائن الاموال والاسلحة وقعد
على سرير الملك وامر ان يحيى بتحية الملوك وتسمى بالحاجب المنصور ونفذت الكتب والمخاطبات والاوامر

وولي بعده ابنه هشام ... الحكم الملقب بالمويد

Copyright King Saud University